«وخالِقِ النَّاس بخُلقٍ حَسنٍ»

للشَّيْخِ الدُّكْتُور:

سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللّٰهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

ابن الجزري

مكتب ابن الجزري للبحث العلمي والتفريغ الصوتي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

أما بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ.

ثم إنني أرحب بإخواني وأخواتي الحاضرين والمتابعين لهذه المحاضرة التي تقام في رحاب مسجد قباء في المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم، في المسجد الذي قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه: «وَفِي ذَاكَ خَيْرٌ».

هذه المحاضرة التي أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعلنا من العباد الذين يتجملون بما فيها، معاشر الفضلاء والفضليات إن من أعظم مقاصد بعثة نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التربية على الأخلاق الكريمة، وتتميم مكارم الإخلاق، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ»، رواه الإمام أحمد والبخاري في الأدب، وصححه الحاكم والذهبي، وقال ابن عبد البر -رحمه الله-: [هو حديث صحيح متصل من وجوه صحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه- وغيره]، وصححه الأرنؤوط والألباني -رحم الله الجميع-.

وفي رواية عند البيهقي، وصححها الألباني: قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ».

وكان من وصـــايا نبينا صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَـنٍ»، رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني.

ولهذا كان من أعظم ما ينبغي أن يعتني به المؤمن: الأخلاق الكريمة؛ أن يربي نفســه ومن تحت يده على محاسن الأخلاق،فالتربية الأخلاقية من أعظم ما ينبغي أن يعتني به كل مربي، ينبغي أن يعتني به ولاة الأمور، والعلماء، والوعاظ، والدعاة، والقائمون على الأسر؛ إذ التربية الأخلاقية هي التربية على الأخلاق الحســنة الممدوحةشرعًا، المحبوبة طبعًا؛ لكي يكون المؤمن كما أراد الله له شرعًا، كالنخلة التي كل ما فيها ينفع، فيكون نافعًا لنفســه، نافعًا لأسرته، نافعًا لجيرانه، نافعًا لحيه، نافعًا لمدينته، نافعًا لوطنه، نافعًا لولاة أمره، نافعًا للناس. وما اعتنت أمة بالتربية الأخلاقية على استقامة في الدين إلا أفلحت وسادت وعزت.

والتربيــة الأخلاقيــة -معــاشـــر المؤمنين والمؤمنـات- ينبغي أن يعتنى بها لوجوه:
الوجه الأول: أنها بمعنى الأدب عند الســلف، وقد كان الســلف -رضــوان الله عليهم- يعتنون بالأدب عناية عظيمة.

قال الإمام عبد الله بن المبارك -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [طلبت الأدب ثلاثين ســـنة، وطلبت العلم عشرين سنة].

وكانوا يطلبون الأدب قبل العلم، كاد الأدب أن يكون ثلثي العلم، كان الســلف يحرصـون على تعلم الأدب وهو الخلق الحسن أكثر من حرصهم على تعلم العلم.

وقال ابن المبارك -رحمه الله-: [نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم].

وقال الإمام عبدالله بن وهب -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [ما تعلمناه من أدب مالك أكثر مما تعلمناه من علمه].

أي: أن الإمام مالك -رحمه الله عزَّ وجلَّ- كان يحرص حرصًا شديدًا على تعليم طلابه الأدب.

وقال الإمام سفيان الثوري: [كانوا -أي السلف- لا يخرجون أبنائهم لطلب العلم حتى يتأدبوا].

وقال الحافظ أبو زكريا يحيى بن محمد: [علم بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كجسم بلا روح].

والمقصود بالأدب عند السلف هو: التحلي بالأخلاق الكريمة.

قال ابن القيم -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [وأَمَّا الْأَدَب مع الْخَلْق: فَهو معاملَتهم – علَى اخْتلَاف مَراتبهمْ – بمَا يليق بهم. فَلكُل مرتبَة أَدَب. والْمَراتب فيهَا أَدب خَاصٌّ. فَمع الْوالديْن: أَدَبٌ خَاصٌّ ولِلْأَب منْهما: أَدَّبٌ هو أَخَصُّ به، ومع الْعالِم: أَدبٌ آخر، ومع السُّلْطَان: أَدبٌ يليق به، ولَه مع الْأَقْران أَدبٌ يليق بهِم. ومع الْأَجانب: أَدبٌ غيرُ أَدبه مع أَصحابه وذَوي نسبه وأُنْسه. ومع الضَّيْف: أَدبٌ غَيْر أَدبه مع أَهْل بيته، ولكُلِّ حَال أَدَبٌ: فَلِلْأَكْل آدَابٌ، ولِلشُّرب آدابٌ، ولِلرُّكُوب والدُّخُول والْخُرُوج والسَّفَر والْإِقَامة والنَّوم آدابٌ، ولِلْبول آدابٌ، ولِلْكَلَام آدابٌ، ولِلسُّكُوت والاستماع آدابٌ. وأَدب الْمرء: عُنْوانُ سعادته وفَلَاحه. وقلَّةُ أَدَبه: عُنْوانُ شَقَاوته وبواره. فَما استُجْلب خَير الدُّنْيا والْآخرة بمثْل الْأَدَب، ولَا استُجْلب حرمانُهما بمثْل قلَّة الْأَدب].

وقال -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [وحَقيقَةُ الْأَدَب استعْمَالُ الْخُلُق الْجَميل. ولِهَذَا كَانَ الْأَدَبُ: استخْرَاج مَا في الطَّبيعَة من الْكَمال من الْقُوَّة إِلَى الْفعلِ].

هذا الوجه الأول: الذي يجعل المؤمن والمؤمنة يحرص حرصًا شديدًا على أن يربي نفسه على الأخلاق، وعلى أن يربي ذريته على الأخلاق.

وأما الوجه الثاني: فهو أن الإسلام دين الأخلاق، والأخلاق من الدين والإيمان، ويتفاضل الناس في الدين بأخلاقهم، ومن زاد في الخلق زاد في الفضل.

ومن أعظم مقاصد الدين: التحلي بمكارم الأخلاق وتتميمها كما تقدم.

وأما الوجه الثالث: فهو أن من مقاصد بعثة الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تزكية النفوس، ولا تكون النفوس زكية على وجه التمام إلا بتخلقها بالأخلاق الحسنة، قال الله عزَّ

وجلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤].

قال الشيخ السعدي -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [هذه المنة التي امتن الله بها على عباده المؤمنين أكبر المنن؛ بل هي أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي جمع الله به جميع المحاسن الموجودة في الرسل، ومن كماله العظيم هذه الآثار التي جعلها الله نتيجةَ رسالته التي بها كمال المؤمنين علما وعملًا، وأخلاقا وآدابا، وبها زال عنهم كل شر وضرر، فبعثه الله من أنفسهم وأنفَسهم وقبيلتهم، يعرفون نسبه أشرف الأنساب، وصدقه وأمانته وكماله الذي فاق به الأولين والآخرين، ناصحا لهم مشفقا، حريصا على هدايتهم، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٤] فيعلمهم ألفاظها، ويشرح لهم معانيها، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] أي: يطهرهم من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر الخصال الذميمة، ويزكيهم أيضًا أي: ينميهم، فيحثهم على الأخلاق الجميلة، فإن التزكية تتضمن هذين الأمرين: التطهير من المساوئ، والتنمية بالمحاسن؛ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وهو القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وهي السنة، فالكتاب والسنة بهما أكمل الله للرسول وأمته الدين، وبهما حصل العلم بأصول الدين وفروعه، وبهما حصلت جميع العلوم النافعة، وما يترتب عليها من الخيرات، وزوال الشرور، وبهما حصل العلم اليقيني بجميع الحقائق النافعة، وبهما الهداية والصلاح للبشر.

فمحمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الإمام الأعظم المعلم لهذين الأمرين، اللذين ينابيع العلوم كلها تتفجر من معينهما، فعلَّم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته الكتاب والحكمة، وأوقفهم على حكم الأحكام وأسرارها، فكانت حياته كلها - أقواله وأفعاله وتقريراته وهديه، وأخلاقه الظاهرة والباطنة، وسيرته الكاملة المتنوعة في كل فن من الفنون - تعليمًا منه للمؤمنين، وشرحًا للكتاب والحكمة، فجمع لهم بين تعليم الأحكام الأصولية والفروعية، وما به تدرك وتنال، والطرق التي تفضي إليها عقلًا ونقلًا وتفكيرًا وتدبرًا، واستخراجًا للعلوم الكونية من مظانها وينابيعها.

وبيَّن لهم فوائد ذلك كله وثمراته، وشرح لهم الصراط المستقيم، اعتقاداته وأخلاقه وأعماله، وما لسالكه عند الله من الخير العاجل والآجل، وما على المنحرف عنه من العقاب والضرر العاجل والآجل.

فكان خيار المؤمنين بهذا التعليم الصادر من النبي الكريم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة، وتبليغًا من العلماء الربانيين الراسخين في العلم، ومن الهداة المهديين، ومن أكابر الصديقين، وحصل لسائر المؤمنين من هذا التعليم نصيب وافر من الخير العظيم على حسب طبقاتهم ومنازلهم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[الجمعة: ٤]، فخرجوا بهذا التعليم من جميع الضلالات، وانجالت عنهم الشرور المتنوعة والجهالات، وتم لهم النور الكامل، وانقشعت عنهم الظلمات. فيا لها من نعمة لا يقدر قدرها، ولا يحصي المؤمنون كنه شكرها]. انتهى كلامه -رحمه الله-.

وقال -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[الجمعة: ٢].

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-: [المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم، منة عظيمة، أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولًا منهم، يعرفون نسبه، وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: علم القرآن وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق؛ بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقًا، وأحسنهم هديا وسمتا، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين.

فلله عليهم ببعثه هذا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أكمل نعمة، وأجل منحة].

فمن أعظم مقاصد الدين: تزكية النفوس بالأخلاق الحسنة، وتطهيرها من الأخلاق الرذيلة.

قال ابن عثيمين -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [قوله -تعالى-: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي: ينمي أخلاقهم ويطهرها من الرذائل].

وقال في فوائد الآية: [أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يزكي الأخلاق، ويطهرها من كل رذيلة، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». وهكذا كانت شريعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تنمية للأخلاق الفاضلة، وتطهيراً من كل رذيلة؛ فهو يأمر بالبر، ويأمر بالمعروف، ويأمر بالإحسان، ويأمر بالصلة، ويأمر بالصدق، ويأمر بكل خير؛ كل ما فيه خير للإنسان في دينه ودنياه فإن الإسلام يأمر به، وهذه تزكية، وينهى عن ضد ذلك؛ ينهى عن الإثم، والقطيعة، والعدوان، والعقوق، والكذب، والغش، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق وهذه أيضاً تزكية].

قال قتادة: [الله بعث نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قوم لا يعلمون، فعلمهم، وإلى قوم لا أدب لهم فأدبهم].

فالله عزَّ وجلَّ بعث نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مزكيًا لنا بالأخلاق الحسنة.

وأما الوجه الرابع، فهو: أن دعوة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها يظهر فيها بيان مكارم الأخلاق.

فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- **قال**: «لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ قَالَ لِأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَىٰ هَذَا الْوَادِي، فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ، فَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِهِ ثُمَّ ائْتِنِي، فَانْطَلَقَ الْآخَرُ حَتَّىٰ قَدِمَ مَكَّةَ، وَسَمِعَ مِنْ قَوْلِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»،رواه مسلم في الصحيح.

والقرؤآن والسنة فيهما مجامع الأخلاق ومكارمها، ولفظ الخُلق لم يرد في القرآن **إلا في موضعين**:

أما الموضع الأول: ففي قوله -تعالى-: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾[الشعراء:١٣٦] ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء:١٣٧]. **ومعنى الخُلق هنا**: الدين.

وأما الموضع الثاني: في قول الله -تعالى- واصفًا نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤].

وهذه الآية الكريمة في النبي الكريم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأصل الأعظم في طلب لخلق الحسن، فمن أراد معرفة الخلق الحسن فعليه بسيرة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليه بالقرآن، فالقرآن خلق النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد دخل سعد بن هشام على أمنا عائشة -رضي الله عنها- ، فسألها: «يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَتْ: " فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ "»، رواه مسلم.

ومن هنا -معاشر الفضلاء- تؤخذ القاعدة الكلية في الأخلاق، وهي: أن من أراد أن يتحلى بالخلق العظيم فعليه أن يقف عند الأوامر في القرآن، فيأتي منها ما استطاع، وأن يقف عند النواهي في القرآن، فيجتنبها، وأن يقف عند الأوامر في السنة فيأتي منها ما استطاع، ويقف عند النواهي في السنة فيجتنبها.

ومما ذكره العلماء من أدب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وحسن خلُقه**: ما أثنى عليه به ربه في قوله -سبحانه-: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[النجم:١٧].

قال ابن القيم -رحمه الله-: [وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم، **حين أراه ما أراه:** ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ **[النجم: ١٧]** وَأَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ صَدَّرَ بَابَ الْأَدَبِ بِهَذِهِ الْآيَةِ. وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ.

وَكَأَنَّهُمْ نَظَرُوا إلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: إنَّ هَذَا وَصْفٌ لِأَدَبِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ. إذْ لَمْ يَلْتَفِتْ جَانِبًا. وَلَا تَجَاوَزَ مَا رَآهُ. وَهَذَا كَمَالُ الْأَدَبِ. وَالْإِخْلَالُ بِهِ: أَنْ يَلْتَفِتَ النَّاظِرُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، أَوْ يَتَطَلَّعَ أَمَامَ الْمَنْظُورِ. فَالِالْتِفَاتُ زَيْغٌ. وَالتَّطَلُّعُ إلَى مَا أَمَامَ الْمَنْظُورِ: طُغْيَانٌ وَمُجَاوَزَةٌ. فَكَمَالُ إقْبَالِ النَّاظِرِ عَلَى الْمَنْظُورِ: أَنْ لَا يَصْرِفَ بَصَرَهُ عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً. وَلَا يَتَجَاوَزَهُ.

هَذَا مَعْنَى مَا حَصَّلْتُهُ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَسْرَارٌ عَجِيبَةٌ، وَهِيَ مِنْ غَوَامِضِ الْآدَابِ اللَّائِقَةِ بِأَكْمَلِ الْبَشَرِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَوَاطَأَ هُنَاكَ بَصَرُهُ وَبَصِيرَتُهُ، وَتَوَافَقَا وَتَصَادَقَا فِيمَا شَاهَدَهُ بَصَرُهُ، فَالْبَصِيرَةُ مُوَاطِئَةٌ لَهُ. وَمَا شَاهَدَتْهُ

بَصِيرَتُهُ فَهُوَ أَيْضًا حَقٌّ مَشْهُودٌ بِالْبَصَرِ. فَتَوَاطَأَ فِي حَقِّهِ مَشْهَدُ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةِ].

كما أن هذه الآية فيها: الحث الشديد والترغيب الأكيد في التحلي بحسن الخلق، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن الله عزَّ وجلَّ وصف نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الوصف؛ ثناءً عليه، **وهذا بيان أن من صفات الصالحين التي يسبقون بها غيرهم:** التحلي بالأخلاق الحسنة.

نعم -معاشر الفضلاء- إن الإنسان الصالح، إن الرجل الصالح، إن المرأة الصالحة أحق الناس بالتحلي بالأخلاق الحسنة، وإن من النقص الشديد أن يكون الرجل صالحًا في تعبده، غير أنه لا تُرى عليه الأخلاق الحسنة، وأن تكون المرأة صالحة في تعبدها، غير أنه لا يُرى عليها أثر الأخلاق الحسنة.

والوجه الثاني: أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القدوة الحسنة للمؤمنين، فيتأسى المؤمن به، ويشرف بأن فيه شيئًا من صفات سيد ولد آدم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

فأخلاق الرسول لنا كتاب وجدنا فيه أقصى مبتغانا، وعزتنا بغير الدين ذل، وقدوتنا شمائل مصطفانا.

قلت: ومن هنا كان حب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم للمؤمن المتحلي بحسن الخلق، فالمؤمن الذي يريد أن يكون من أحباب رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن يعظُم حب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، فعليه أن يتحلى ويتجمل بالأخلاق الحسنة.

فعن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما-: أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مِن أَحَبِّكُم إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»، رواه البخاري في الصحيح.

وكانت الخيرية أعظم في المؤمن حسن الأخلاق، فعن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما-: أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مِن خِيَارِكُم أَحْسَنَكُم أَخْلَاقًا»، متفق عليه.

وكان القرب من النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمؤمنين منوطًا بحسن الخُلق، فعن أبي ثعلبة الخشني -رضي الله عنه- أن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَىَ الله، وأَقْرَبَكُم مِنِّي أَحَاسِنكُم

أَخَلَاقًا، وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم منِّي في الآخرةِ أساوِئُكم أخلاقًا الثَّرثارونَ المُتَفَيهِقونَ المُتشدِّقونَ»، رواه أحمد وابن حبان، وصححه الألباني.

وعن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- أنه قال: «أَنّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فِي مَجْلِسٍ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، الله أكبر! ما أعظمه من حديث! إن كل مؤمن يتمنى أن يكون يوم القيامة من الأقربين إلى رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لأصحابه، ولأمته من بعدهم: «أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُهَا- قُلْنَا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»، رواه أحمد زوابن حبان، وصححه الألباني.

وكان حسن الخلق من أعظم ما يوصل إلى الجنة، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَىٰ اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ»، رواه الترمذي وابن ماجه، وحسَّنه الألباني.

وعن أبي الرداء -رضي الله عنه- قال: «سمعت النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وإنَّ صاحِبَ حُسنِ الخلُقِ ليَبلُغُ بِهِ درجَةَ صاحِبِ الصَّومِ والصلاةِ»، رواه أبو داوود والترمذي، وصححه الألباني.

الله أكبر! ما أعظم هذا الأمر! إن حسن الخلق ثقيل في الميزان يوم القيامة، وما أحوج المؤمن إلى ما يثقلف كفة حسناته يوم القيامة، وما يدريك يا عبد الله، ما يدريك يا عبد الله لو أن خلقًا حسنًا واحدًا تحليت به، وتجملت به، هو الذي ترجح به كفة حسناتك، فتكون من أهل الجنة، وتزحزح عن النار.

وإن صاحب حسن الخلق وإن قلت عبادته ليبلغ به حسن خلقه منزلة المكثرين من العبادة، يبلغ به حسن خلقه منزلة صاحب الصوم والصلاة.

والخلق الحسن -أيها الفضلاء والفضليات- صفة يتصف بها الإنسان يتحقق بها الخير الشرعي والعرفي للمتصف بها وغيره، والخلق السيء يقابل ذلك، فهو صفة يتصف بها الإنسان يتحقق بها شر للمتصف بها وغيره، والموفق منا من راجع نفسه، وتأمل في حاله، فما وجده من خلق ظاهر وباطن، ما وجده من خلق فيه في تعامله مع أهل بيته، وتعامله مع جيرانه، وتعامله مع أقرانه، وتعامله مع أقرانه، وتعامله مع أحبابه، وتعامله مع إخوانه حمد الله عليه، وعلِم أن الفضل لله، وسأل الله أن يثبته عليه، ولم يغيره.

وما وجده من خلق سيء استغفر الله منه وقلاه، وهجره، وتركه، وابتعد عنه، وسأل الله أن يخلصه منه، وسعى في تغييره.

ومن علِم الله أنه صادق في طلبه أن يغير ما في نفسه غيّر الله عليبه إلى خير.

وودعد الله حق، وقول الله صدق، وقد قال -سبحانه-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١].

وقد علمنا ربنا -سبحانه- جوامع الأخلاق في عدد من الآيات:

منها: قول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الحجرات:١١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[الحجرات:١٢].

بدأ الله هاتين الآيتين بهذا النداء العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقد قال العلماء: إذا صُدِّرت الآية بهذا النداء العظيم فإنما فيها من جوامع الخير.

قال ابن جرير -رحمه الله عزّ وجلّ- يخاطب الله المؤمنين ويناديهم: [ورسولَه، لَا يهزأْ قَوم مُؤْمِنُونَ من قَوْم مؤمنين ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ **[الحجرات: ١١]** يَقُولُ: الْمَهْزُوءُ مِنْهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْهَازِئِينَ].

فلعل المستهزأ به يكون خيرًا من الهازئين.

يقول: [الهازئين، ولا نساءٌ من نساء أي: ولا يهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات عسى المهزوء منهنّ أن يكن خيرا من الهازئات].

إن هذا الخلق العظيم في مخالقة الناس ومعاملة الناس من أحسن الأخلاق وأزكاها، وأفضلها وأعلاها أن تبرأ نفسك أيها المؤمن من أن تستهزأ بمؤمن، وأن تبرئي نفسك أيتها المؤمنة من أن تستهزئي بمؤمنة، **يقول ابن جرير** -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: **[إنَّ اللهَ عَمَّ بنهيه الْمؤمنين عن أَنْ يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السُّخرية، فَلَا يحلُّ لمؤمن أَنْ يَسْخر من مؤمن لَا لفقره، ولَا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك،** ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ **[الحجرات: ١١]** فَجَعَلَ اللَّامِزَ أَخَاهُ لَامِزًا نَفْسَهُ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ فِيمَا يَلْزَمُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِنْ تَحْسِينِ أَمْرِهِ، وَطَلَبِ صَلَاحِهِ، وَمَحَبَّتِهِ الْخَيْرَ وَاحِدٍ].

فلمز المؤمن للمؤمن كأنه يلمز نفسه، فكيف إذا كان يلزمه بالكذب، فكيف إذا كان يلزمه بالاعتداء.

قال: [قَولُه: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ **[الحجرات: ١١]** يَقُولُ: وَلَا تَدَاعَوْا بِالْأَلْقَابِ؛ وَالنَّبْزُ وَاللَّقَبُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ].

[وَالذي هو أَولَى الْأَقْوال في تأْويل ذَلكَ عندي بالصَّواب أَنْ يقَالَ: إنَّ اللهَ تعالَى ذكْرُه نَهَى الْمؤْمنين أَنْ يتنابزوا بالْأَلْقاب، والتَّنابز بالْأَلْقاب: هو دعاء الْمرءِ صاحبه بما يكْرهه من اسم أَو صفة، وعمَّ اللَّه بنهيه ذلك، ولَم يخصص به بعض الْأَلقاب دون بعضٍ، فغير جائزٍ لأَحد من الْمسلمين أَنْ ينبز أَخَاه باسمٍ يكْرهه أَو صفة يكْرهها].

[وقولُه: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ **[الحجرات: ١١]** يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَنْ فَعَلَ مَا نَهَيْنَا عَنْهُ، وَتَقَدَّمَ عَلَى مَعْصِيَتِنَا بَعْدَ إِيمَانِهِ، فَسَخِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمَزَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ، وَنَبَزَهُ بِالْأَلْقَابِ، فَهُوَ فَاسِقٌ ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ **[الحجرات: ١١]** يَقُولُ: فَلَا تَفْعَلُوا فَتَسْتَحِقُّوا إِنْ فَعَلْتُمُوهُ أَنْ تُسَمَّوْا فُسَّاقًا، بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ].

[وقولُه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **[الحجرات: ١١]** يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْ نَبْزِهِ أَخَاهُ بِمَا نَهَى اللَّهُ عَنْ نَبْزِهِ بِهِ مِنَ الْأَلْقَابِ، أَوْ لَمْزِهِ إِيَّاهُ، أَوْ سُخْرِيَتِهِ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَأَكْسَبُوهَا عِقَابَ اللَّهِ بِرُكُوبِهِمْ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ].

ثم يقول: [يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا تَقْرَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ أَنْ تَظُنُّوا بِهِمْ سُوءًا، فَإِنَّ الظَّانَّ غَيْرُ مُحِقٍّ، وَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] وَلَمْ يَقُلِ: الظَّنَّ كُلَّهُ، إِذْ كَانَ قَدْ أَذِنَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَظُنَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ الْخَيْرَ]، أي: أن الظن إما أن يكون ظن خير، وإما أن يكون ظن سوء، فأذن الله عزَّ وجلَّ بظن الخير، ومنع من ظن السوء. ولما كان واقع الحال من الناس أن أغلب ظنونهم إنما هي في باب السوء، أمر الله عزَّ وجلَّ باجتناب كثير من الظن.

[وقولُه: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. يقولُ: إنَّ ظنَّ المؤمنِ بالمؤمنِ الشرَّ لا الخيرَ إثمٌ؛ لأن اللَّهَ قد نَهاه عنه، ففعلُ ما نَهَى اللَّهُ عنه إثمٌ].

هذه قضية مهمة جدًا، الله عزَّ وجلَّ نهانا عن ارتكاب كثير من الظن؛ لأن بعض الظن إثم، فالمؤمن يخشى أن يقع في الإثم؛ فيجتنب الكثير من الظن، خشية أن يقع في الإثم.

وهذا خلق للمؤمن أنه دائمًا يكون حريصًا على ألا يقع في الإثم، فيجتنب ما نهى الله عزَّ وجلَّ عنه، ولا يقدم إلا على شيء تبين أن الله عزَّ وجلَّ أذن له فيه، وما شك فيه تركه؛ خشية أن يقع في الإثم.

قال -رحمه الله-: [وقولُه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. يقولُ: ولا يتتبَّعْ بعضُكم عورةَ أخيه، ولا يبحثْ عن سرائرِه، يبتغي بذلك الظُّهورَ على عيوبِه، ولكن اقْنَعوا بما ظهَر لكم من أمرِه، وبه فامْدَحوا أو ذُمُّوا، [لا على ما لا تعلَمونه] من سرائرِه.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، يقولُ: ولا يقُلْ بعضُكم في بعضٍ بظَهْرِ الغيبِ، ما يكرَهُ المقولُ فيه ذلك أن [يقالَ له] في وَجْهِه.

وقولُه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. يقولُ تعالى ذكرُه للمؤمنين به: أيُحِبُّ أحدُكم أيُّها القومُ أن يأكلَ لحمَ أخيه بعدَ مماتِه مَيْتًا، فإن لم تُحبُّوا ذلك وكَرِهْتُموه لأنَّ اللَّهَ حرَّم ذلك عليكم، فكذلك لا تُحبُّوا أن تَغْتابوه في حياتِه، فاكْرَهوا غِيبتَه حَيًّا كما كَرِهْتُم أكلَ لحمِه مَيْتًا؛ فإنَّ اللَّهَ حَرَّم غِيبَتَه حيًّا كما حرَّم أكلَ لحمِه مَيْتًا.

وعن قتادةَ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. يقولُ: كما أنت كارهٌ لو وجَدتَ جِيفةً مُدَوَّدَةً أن تأكلَ منها، فكذلك فاكْرَه غِيبتَه وهو حيٌّ.

وقولُه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾. يقولُ تعالى ذكرُه: واتَّقوا اللَّهَ أيُّها الناسُ، فخَافوا عقوبتَه، بانتهائِكم عمَّا نهاكُم عنه؛ من ظنِّ أحدِكم بأخيهِ المؤمنِ ظنَّ السُّوْءِ، وتَتَبُّعِ عَوْراتِه، والتَّجسُّسِ عما استترَ عنه من أمورِه، واغْتيابِه بما يكْرهُه، تُريدُون شَينَه وعَيبَه، وغيرِ ذلك من الأمورِ التي نَهاكم عنها ربُّكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾. يقولُ: إن اللَّهَ راجعٌ لعبده إلى ما يحبُّه، إذا [راجع العبدُ ربَّه] إلى ما يحبُّه منه، رحيمٌ به أن يعاقِبَه على ذنبٍ أذْنَبَه بعدَ توبتِه منه].

أي: أنه رحيم به، فلا يعاقبه بذنب قد تاب منه.

معاشر الإخوة عندنا في هذه الآية مجموعة من الأخلاق الحسنة الداخلة تحت قول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»:

الأول منها: احترام المؤمن، ويقابله السخرية منه.

والثاني منها: مناداة المؤمن بأحسن الألفاظ، ويقابله التنابذ بالألقاب.

والثالث: حسن الظن بالمؤمنين، ما أمكن حسن الظن، ويقابله سوء الظن بالمؤمنين من غير سبب شرعي يقتضي ذلك، قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَديثِ»، متفق عليه.

قال سفيان -رحمه الله-: «الظَّنُّ ظَنَّانِ: فَظَنٌّ إِثْمٌ، وَظَنٌّ لَيْسَ بِإِثْمٍ، فَأَمَّا الظَّنُّ الَّذِي هُوَ إِثْمٌ فَالَّذِي يَظُنُّ ظَنًّا وَيَتَكَلَّمُ بِهِ»، أي: يظن ظنًا سيئًا في المؤمن من غير سبب يدعو إلى ذلك، ويتكلم به. «وَأَمَّا الظَّنُّ الَّذِي لَيْسَ بِإِثْمٍ فَالَّذِي يَظُنُّ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِهِ»، رواه الترمذي.

أي: أن المؤمن إذا ظن بأخيه المؤمن ظنًا سيئًا في قلبه؛ لكنه لم يتكلم بهذا، ولم يعمل به، فإنه يعفى له عن ذلك.

والخُلُق الرابع: عدم التجسس على المؤمنين، ويقابله التجسس عليهن، فعن أبي هريرة عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِيَّاكُمْ والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَديثِ، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا تَنافَسُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا»، متفق عليه.

والخلق الخامس: ذكر المؤمنين في غيبتهم بالخير، أو السكوت عنهم، ويقابله الغيبة، قال رسولنا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «أَتَدْرُونَ ما الغِيبَةُ؟ قالوا: اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: ذِكْرُكَ أخاكَ بما

يَكْرَهُ. قيلَ: أفَرَأَيْتَ إنْ كانَ في أخِي ما أقُولُ؟ قالَ: إنْ كانَ فيه ما تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وإنْ لَمْ يَكُنْ فيه فقَدْ بَهَتَّهُ»، رواه مسلم في الصحيح.

المؤمن ينبغي عليه أن يشتغل بعيوبه، وألا يشتغل بعيوب الناس ذكرًا، إلا ما أذن الله فيه، أو كان نصحًا لدين الله عزَّ وجلَّ أو المؤمنين، فمن أسباب الغيبة الغفلة عن عيوب النفس، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال سول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُبْصِرُ أحدُكم القذَىٰ في عينِ أخيهِ ويَنْسَىٰ الْجِذْعَ في عينِهِ»، رواه ابن حبان، وصححه الألباني.

إذا كان الإنسان نقادًا للناس من غير إذن شرعي، ينظر في عيوب الناس، ولا يراقب نفسه، ولا ينظر في عيوبه، فإنك تجده متلمسًا عيوب الناس، فإن لم يجد لهم عيوبًا اخترع لهم عيوبًا لما ذلهم، سبابًا لهم، واصفًا لهم بما هم براء منه، سبحان الله! «يُبْصِرُ أحدُكم القذَىٰ في عينِ أخيهِ ويَنْسَىٰ الْجِذْعَ في عينِهِ».

إن من الأخلاق الحسنة التي تدخل تحت قول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»: ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون:١]، وذكر من صفاتهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[المؤمنون:٣]، فهم في الكلام كله معرضون عن كلام لا يفيد، فكلامهم كله خير، إن جالسوا الناس حدثوهم بخير، إما بأمر من الشرع يبينونه، وإما بأمر مباح يدخلون به السرور على الناس، لا يجاوزن ذلك، يمسكون ألسنتهم عن كل لغو، عن كل كلام يضر، عن كل كلام محرم، عن كل كلام يقود إلى ما حرم الله -سبحانه وتعالى-.

ومن فعل ذلك واتصف بهذه الأخلاق العظيمة كان من المفلحين، وكان من السعداء في الدنيا، والفائزين عند لقاء الله -سبحانه وتعالى-.

فالمؤمن من أخلاقه مع الناس: أنه يمسك لسانه، ولا يتكلم بلسانه في أموره كلها، إلا بخير يعلمه، وإلا صمت؛ لأنه يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه لا يقول إلا خيرًا.

ومن الأخلاق الحسنة التي يعامل بها الإنسان غيره: أن يحفظ أمانات الناس، فكل أمانة وضعت عنده يحفظها، ولا يخرجها إلى الناس، إذا حدثك إنسان، وعلمت منه أنه يكره أن يخرج هذا الكلام ولو بالتفاته وهو يحدثك، فإنه لا يجوز لك أن تخرج هذا الكلام عنه، ولو إلى خاصتك، ولو

إلى أقرب الناس إليك، إن حفظ الأمانة شأنه عظيم، ربنا -سبحانه وتعالى- قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[النساء:٥٨]، أن تحفظوها، وألا تفشوها، وإذا حدث مسلم أخاه، ثم التفت فهي أمانة؛ لأن التفاته يدل على أنه لا يريد أن يسمع أحد غير الذي يكلمه كلامه هذا.

وإن ما يتعلق بهذا الخلق الحسن والأدب الرفيع: ما يتعلق اليوم بأمر الهواتف، فإن الإنسان قد يتصل بأخيه ويكلمه، وبعض الناس -هدانا الله وإياهم- يفتح الميكرفون، وقد يكون عنده أناس يسمعون الكلام، وهذا لا يجوز إلا بإذن المتكلم، فيقول له -مثلًا-: عن إذنك أفتح الميكرفون أو أفتح المسماع وعندي فلان وفلان، وفلان، فإن أذن له، وإلا فإنه لا يجوز له ذلك.

كذلك: لو أن الإنسان كتب لأخيه رسالة على ما يسمى بالواتس فإنها أمانة لا يجوز له أن يخرجها إلى غيره، إلا بإذنه.

كذلك: لو أن الإنسان أرسل صوتية إلى أخيه بالهاتف، فإنه لا يجوز له أن يخرجها إلا بإذنه.

ومن ذلك -أيضًا-: ما يتعلق بأسئلة الإخوة للمشايخ، فإن السائل إنما يسأل لنفسه، فلا يجوز له أن يخرج جواب الشيخ له، إلا بإذن الشيخ، وإلا كان الجواب مقصورًا على السائل وجوبًا.

وإن من العيوب التي أراها في زماننا: أن بعض الناس يرسل سؤالًا للشيخ، ثم يجيب الشيخ عن السؤال بعينه، ثم إن السائل يضع سؤالًا آخر يركبه على جواب الشيخ، ثم يجعل جواب الشيخ جوابًا عن ذلك السؤال، وهذا خيانة، وكذب، وخداع، من أشنع الأخلاق وأبشعها.

الواجب على المؤمن والمؤمنة تقوى الله -سبحانه وتعالى-، وحفظ هذه الأمانة، فمن فعل ذلك كان من المؤمنين، المفلحين، الموعودين بأن يكونوا من أهل الفردوس وأهل الجنة.

ومن الأخلاق التي تدخل تحت قول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»: أن يحرص المؤمن على أداء حقوق إخوانه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة:١٧٧].

إن من أخلاق المؤمنين، المفلحين، المتقين، الصادقين: أنهم يحرصون على إيصال الحقوق الواجبة أو المستحبة إلى إخوانهم.

ومن ذلك: أنهم يحرصون على إيصال الزكاة إلى أهلها، وعلى إيصال الصدقات إلى إخوانهم من المؤمنين، كما أنهم، يحرصون على الوفاء بالعقود، ويحرصون على الصبر في جميع أحوالهم، فلا تجدوا عندهم تعجلًا، ولا غضبًا سريعًا، ولا إعمالًا للغضب، وإنما تجد عندهم الصبر على إخوانهم، فهذه من صفات المؤمنين المتقين المفلحين.

وقال ربنا -سبحانه-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ٩٠] ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[النحل: ٩١].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، **والعدل:** إعطاء كل ذي حق حقه بمقدار حقه.

ويأمر بالإحسان، والإحسان هو: الفضل، وهو أن يعطي أن يعطي الإنسان فوق الحق الذي عليه، إن لم يأمر الشرع بالعدل فقط.

وهذا من أحسن الأخلاق في معاملة الناس: أن تحرص في معاملتك للناس على العدل، وألا تنزل عن العدل أبدًا، أن تعطي كل إنسان حقه بمقدار حقه.

والعدل: خلق فاضل مطلق لكل إنسان يتعامل معه، سواء كنت تتعامل مع حبيب أو بغيض، أو تتعامل مع صديق أو عدو، أو تتعامل مع قريب أو بعيد، أو تتعامل مع مسلم أو كافر، يجب العدل، ولا يجوز الظلم لأحد من الناس.

ومن الخير: أن تعامل الناس بالفضل ما لم يمنع الشرع من ذلك، فتعطي فوق الذي عليك، وتأخذ أقل من الذي لك، إنه من أحسن الأخلاق في الأشياء الحسية، وفي الأشياء المعنوية، إذا كان لك شيء حسي عند أحد، فالعدل أن تأخذه كما هو، والفضل أن تأخذ أقل مما لك، وفي الأشياء المعنوية كذلك.

وأضرب مثالًا للأشياء المعنوية في التعامل بين الزوجين -مثلًا-: فالزوج في تعامله مع زوجته يعطيها فوق حقها، ويطلب منها أقل من حقه، والزوجة تعطي زوجها فوق حقه، وتطلب

منه أقل من حقها، هذا الخلق الحسن من أعظم الأخلاق، وأنفعها، وأكثرها أثرًا في الحياة، في معاملة الناس بالأخلاق الحسنة.

المؤمن والمؤمنة حريص على لزوم وصية النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»، ولنعلم أن التودد إلى الناس بالأخلاق الحسنة مقصود شرعي، وزيادة في العقل، وإنما يعرف العاقل بتوددِه إلى الناس، بما لا يمنع منه الشرع؛ ولذلك كان شائعًا عند السلف أن التودد إلى الناس نصف العقل، جاء هذا عن جمع من السلف الصالح -رضوان الله عليهم-.

فالمؤمن يحرص على التودد إلى الناس بالأخلاق الحسنة، بما لا يمنع منه الشرع.

فهذا الباب باب عظيم، كان السلف الصالح -رضوان الله عليهم- يأمرون بلزومه، وينهون عنه تجاوزه.

إن من أحسن الأخلاق وأجملها وأكملها في معاملة الناس: أن يكون الإنسان هاشًا، باشًا، طلق الوجه، مبتسمًا، يلقى إخوانه بابتسامة طيبة، وبعبارات لطيفة، أن يُرى منه البشاشة، إذا رآه الناس رأوا في وجهه بسمة ظاهرة، وبشاشة تدعو القلوب إلى الانجذاب إليه.

يقول الإمام السعدي -رحمه الله عزَّ وجلَّ-: [التودُّد إلى الناس بالأخلاق الجميلة، والبشاشة وحُسْن الخُلُق، من أكبر الأسباب لراحة القلب والبدن، والسلامة من الغِلِّ، والحقد، والمنازعات، والمخاصمات، والتعلُّقات المشوِّشة للأفكار الموجبة للأكدار].

إن التودد إلى الناس بالأخلاق الحسنة ينير القلب، ويشرح القلب، ويريح القلب، ويغسل القلب غسلًا من الأدران، من أدران الحسد، وأدران البغضاء وغيرها.

وإن أولى الناس بالتودد إليه بالأخلاق الحسنة: الوالدان زينة البيوت، زينة دنيا الإنسان، والله ثم والله إن الوالد زينة لحياة ابنه، ولو كان عاميًا، ولو كان مريضًا زينة لحياة ابنه، ولا يعرف هذه الزينة حق معرفتها إلا من فقدها.

وإن الأم مهما كان حالها، زينة حياة الابن والابنة، الوالدة في البيت زينة البيت، إذا دخلت البيت فسمعت صوتها ينشرح صدرك، وتسكن نفسك، الوالدة زينة حياة الابن والابنة ولا يعرف قدر هذه

الزينة إلا من فقدها -رحم الله من مات من آبائنا وأمهاتنا وبارك في من بقي منهم وأعاننا على التودد إليهم-.

أولى الناس بالتودد إليهم بالأخلاق الحسنة: الأب والأم، ثم الأبناء والزوجة، أهل البيت.

ينبغي للإنسان أن يروض نفسه على أن يتودد إلى أهله بالأخلاق الحسنة.

ومن الناس الذين يجمل التودد إليهم بالأخلاق الحسنة: الجيران، ومن أسفٍ شديد أن أصبحنا نعيش في زمان غلب على الناس أن أحدهم لا يعرف جاره أصلًا، يلتقيان فلا يسلم هذا على هذا، ولا يقبل هذا على هذا؛ بل قد لا يعرف اسمه أصلًا.

نجد اليوم أناسًا يعيشون في عمارة واحدة بعضهم لا يعرف أسماء بعض، وهذه والله ليست من الأخلاق الحسنة، ما أجمل! أن يتودد الجار إلى جيرانه بأمر يهديه إليهم، بألفاظ طيبة، بابتسامات مشرقة، بأن يلقى جيرانه بأحسن لقيا.

وممن يحسن التودد إليهم بالأخلاق الحسنة: طلاب العلم، فهم والله زينة المجتمع، وأمان المجتمع، طلاب العلم ما أجمل رؤياهم!، والله أنهم أمنة لمجتمعهم، والله أنهم زينة لمجتمعهم، يحسن بمن يعرف طالب علم أن يتودد إليه بالأخلاق الحسنة، وجميل بطلاب العلم أن يتودد بعضهم إلى بعض بالأخلاق الحسنة، وأن يبتعدوا ابتعادًا شديدًا عن الأخلاق السيئة، فإن مما يقطع الأوصال، ويباعد طلاب العلم عن بعضهم التحلي بالأخلاق السيئة.

وهذا ينبغي على طلاب العلم عمومًا أن يتخلصوا منه، وأن يبتعدوا عنه.

وإن من أحسن التودد: أن تكون وصولًا، حتى لو قُطعت، لو قطعك رحمك، فإنك تصله، وقد قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليسَ الواصِلُ بالمُكافِئِ، ولَكِنِ الواصِلُ الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وصَلَها**»، كما عند البخاري في الصحيح.

وهذا الحديث وإن ورد في صلة الأرحام، إلا أنه تدخل فيه كل صلة، تدخل فيه الصلة بين الجيران، وتدخل فيه الصلة بين الإخوان، فما أجمل يا عبد الله! من أن تكون وصولًا ولو قطعك إخوانك، ولو قطعك جيرانك، أن تسعى إلى الوصل ما لم يقتضِ الشرع الهجر.

معاشر الإخوة والأخوات إننا نعيش في زمن كَثُرت فيه الأنانية، وعظم فيه ابتعاد الناس عن بعضهم، وقلت الأخلاق الحسنة، فما أحوجنا إلى أن نتواصى بأن نعامل بعضنا بالأخلاق الحسنة، وقد أحسن فرع وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد في منطقة المدينة أيما إحسان بهذا البرنامج العظيم النافع الذي يتحدث عن مكارم الأخلاق، فأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجزي إخواننا في الفرع، وعلى رأسهم الشيخ الفاضل أسامة بن زيد المدخلي -حفظه الله عزَّ وجلَّ ورحم أباه الشيخ زيد رحمة واسعة- أسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء.

معاشر الإخوة، معاشر الأخوات إنني أنادي نفسي، وأناديكم جميعًا بأن نعتني بالتربية الأخلاقية نربي أنفسنا، نربي أهلينا، نربي ذرياتنا على الأخلاق، فإن والله إن فعلنا أفلحنا، وفزنا، وعشنا حياة طيبة.

أسأل الله عزَّ وجلَّ بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، أن يوفقني وإياكم إلى ما يحب ويرضى.

اللّٰهم يا ربنا يا حي، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، نسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلا، أن تهدينا إلى أحسن الأخلاق، وأن تجعلنا من أهلها المتحلين بها يا رب العالمين.

أسأل الله عزَّ وجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعلنا أهل رحمة، وأن يجعلنا أهل رفق، وأن يجعلنا أهل عدل، وأن يجعلنا أهل إحسان، وأن يكفينا شرور أنفسنا والشياطين. هذا ما تيسر طرحه في الوقت.

وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَى وَأَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمَ